

مقولة التواصل في الدرس اللغوي وإشكالية الممارسة

The expression of the communication of the linguistic lesson and the practice problem

محمد مزاييني *

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)، Mezaini60@yahoo.fr

تاريخ الإرسال 2021/10/13 تاريخ القبول 2021/12/12 تاريخ النشر 2021/12/27

ملخص:

قام الدرس اللغوي العربي على منظومة من المصطلحات التي أسست لعدد من المفاهيم والتصورات، وانطلاقاً من ذلك أقبل أهل اللغة على التنظير في مختلف القضايا، وكذا التمثيل لها بالقرآن الكريم، والأدلة اللغوية، والشواهد الشعرية، ومن المسائل التي استوقفتنا في هذا الحقل المعرفي مسألة فلسفة التواصل ومنطق اشتغالها في الدرس اللغوي العربي؛ ذلك أن الممارسات التواصلية في الوسط اللغوي وبالنظر إلى أهميتها بوصفها موجهة للعلاقات الثقافية والحضارية بين أطراف الحوار؛ خاصة حين يتعلق الأمر بجذلية العلاقة بين الأنا والآخر تحتاج فعلاً إلى مراجعة؛ من أجل سد فجوات التواصل، والتقليل من هوامش الارتباك والتوتر على مستواه. تتدخل العديد من الوسائط النفسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية في إنجاز الأثر التواصلية، فضلاً عن الوسيط اللغوي؛ وبما أن التواصل اشتغال معقد على منظومة من المرجعيات والخلفيات فإنه يتجاوز فكرة كونه ظاهرة لسانية خالصة؛ حيث نشهد معه تدخلاً عميقاً للعديد من السياقات المتصلة بالزمان والمكان والإنسان.

الكلمات المتاحية: الدرس اللغوي، المصطلحات، المفاهيم، الأدلة اللغوية، الشواهد الشعرية، فلسفة التواصل.

Abstract: The Arabic linguistic lesson was based on a system of terms that established a number of concepts and perceptions. Based on this, the linguists began to theorize in various issues, as well as to represent them with the Holy Qur'an, linguistic evidence, and poetic evidence. And among the issues that caught our attention in this field is the "the philosophy of communication and the logic of its work in the Arabic language lesson", and that is due to the fact that The communicative practices in the linguistic field, given their importance as a guide to the cultural and civilizational relations among the parties of the dialogue; Especially when it comes to the dialectic of the relationship between the ego and the other really needs a revision In order to bridge the communication gaps, and reduce the margins of confusion and tension at its level. Many psychological, social, cultural and historical mediators interfere in achieving the communicative effect, in addition to the linguistic mediator. Since communication is a complex work on a set of references and backgrounds, it goes beyond the idea of being a purely linguistic phenomenon; for it is intertwined with many contexts related to time, place and man.

Keywords: linguistic lesson, terminology, concepts, linguistic evidence, poetic evidence, communication philosophy.

مقدمة:

يعد التواصل أهم مبحث في الدرس اللغوي بمختلف علومه ونظرياته؛ ذلك أن اشتغال اللغة، أو ممارستها إنما تتجلى في طابعها الإجرائي من انتقال الرسالة اللغوية من المرسل إلى المرسل إليه، وهذا الانتقال هو الذي يجسد الأثر التواصلية بين أطراف السيرة اللغوية، أو دورة التخاطب، الأمر الذي يثير سؤال الدلالة التواصلية في بعدها الفكري أكثر من أي سؤال آخر.

مفهوم التواصل:

التحديد اللغوي:

التواصل في المعجمية العربية من الفعل؛ وقد ذكرته بهذا الأصل العديد من المعاجم؛ حيث جاء في مقاييس اللغة أن "(وصل) الواو والصاد واللام: أصل واحد يدل على ضمّ شيء إلى شيء حَتَّى يَغْلِقَهُ. وَوَصَلْتُهُ بِهِ وَصَلًا، وَالْوَصْلُ: ضِدُّ الْهَجْرَانِ، وَمَوْصِلُ الْبَحِيرَةِ مَا بَيْنَ عَجْزِهِ وَفَخْذِهِ. وَالْوَصْلَةُ فِي الْحَدِيثِ: الَّتِي تَصِلُ شَعْرَهَا بِشَعْرِ آخَرٍ زُورًا. وَيَقُولُ وَصَلْتُ الشَّيْءَ وَصَلًا، وَالْمَوْصُولُ بِهِ وَصَلٌ بِكَسْرِ الْوَاوِ"¹.

ومن المعاني اللغوية المذكورة في هذا الباب "الْوَصِيلَةُ: الْعِمَارَةُ وَالْخَصْبُ، لِأَنَّهَا تَصِلُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَإِذَا أُجْدَبُوا تَقَرَّقُوا. وَالْوَصِيلَةُ: الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ، كَأَنَّهَا وُصِلَتْ فَلَا تَنْقَطِعُ"².

وذكره الزمخشري فقال: "وصل: وصل الشيء بغيره فاتصل. ووصل الحبال وغيرها توصيلاً: وصل بعضها ببعض، ومنه: ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ (القصص/51)، وخيط مؤصل: فيه وصل كثير. ووصلني بعد الهجر ووصلني، وصرمني بعد الوصل والصلة والوصال، وتصارموا بعد التواصل. وهذا مؤصل الحبلين والعظمين. ووصلت شعرها بشعر غيرها. ولعن الله الواصلة والمستوصلة. وقطع الله أوصاله: مفاصله، جمع وصل؛ قال ذو الرمة:

إِذَا ابْنُ أَبِي مُوسَى بَلَالًا بَلَعْتِهِ فَقَامَ بِفَأْسٍ بَيْنَ وَصْلِكَ جَازِرٌ"³.

وفي قوله تعالى: "﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾" (المائدة/103)، وجاء في تفسيره ما ذكره الزمخشري حين قال: "وهي التي وصلت أختها من أولاد الغنم فلم تُذبح، وإذا مات رجل أو تُكَبِّ قِيلَ لِلْآخَرِ: لَا كُنْتَ لَهُ بَوْصِيلًا؛ أي لا وصلت به فيصيبك ما أصابه. وهو وصيل فلان: لمواصله الذي لا يكاد يفارقه. ووصل إليه وُصُولًا. وأوصلته إليه. وتوصلت إليه: تَلَطَّفتُ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَيْهِ. وهذا وُصْلَةٌ إِلَى كَذَا، وَبَيْنَهُمْ وَصْلَةٌ وَوُصْلٌ. وساق الله إلي وُصْلَةً حَتَّى بَلَغْتُ مَقْصِدِي، أي رفقة حملوني"⁴.

أما معجم لسان العرب فلم يبتعد كثيراً عن التحديدات اللغوية السابقة الذكر بخصوص الأصل "وصل"؛ فهو من "وَصَلْتُ الشَّيْءَ وَصَلًا وَوَصْلَةً، وَالْوَصْلُ ضِدُّ الْهَجْرَانِ...، وَصَلْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ يَصِلُهُ وَصَلًا وَوَصْلَةً وَوُصْلَةً؛ الْآخِرَةُ عَنْ ابْنِ جَنِّي، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ (القصص/51)؛ أي وصلنا ذكر الأنبياء وأقاصيص من مَضَى بعضها ببعض، لعلهم يَتَّبِعُونَ. واتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع؛ وقوله أنشده ابن الأعرابي:

سُحِيرًا وَأَعْنَاقُ الْمَطِيِّ كَأَنَّهَا مَدَافِعُ ثَغْبَانٍ أَضَرَّ بِهَا الْوَصْلُ

معناه: أَضَرَّ بِهَا فَقَدَانِ الْوَصْلِ. وَوَصَلَ الشَّيْءُ إِلَى الشَّيْءِ وَصُولًا وَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ: انْتَهَى إِلَيْهِ وَبَلَغَهُ؛ قَالَ أَبُو ذُؤَيْب:

تَوَصَّلَ بِالرَّكْبَانِ حِينًا، وَتَوَلَّفُ الْـ جَوَارَ، وَيُغَشِّيهَا الْأَمَانُ رَبَابُهَا

وَوَصَّلَهُ إِلَيْهِ وَأَوْصَلَهُ: أَنَّهُ إِذَا بَلَغَهُ إِثَّاهُ. وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): صِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَى وَالرِّمَاحَ بِالنَّبْلِ؛ قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: أَيُّ إِذَا قَصُرَتِ السُّيُوفُ عَنِ الضَّرْبَةِ فَتَقَدَّمُوا تَلَحُّقًا وَإِذَا لَمْ تَلَحُّقْهُمْ الرِّمَاحُ فَارْزُقُوهُمْ بِالنَّبْلِ⁵.

وَمِنَ الصِّيَغِ اللَّغَوِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ أَيْضًا: "وَاصَلَ حَبْلَهُ: كَوَصَلَهُ، وَالْوُصْلَةُ: الْإِتِّصَالُ. وَالْوُصْلَةُ: مَا اتَّصَلَ بِالشَّيْءِ. قَالَ اللَّيْثُ: كُلُّ شَيْءٍ اتَّصَلَ بِشَيْءٍ فَمَا بَيْنَهُمَا وَصْلَةٌ، وَالْجَمْعُ وَصَلٌ. وَيُقَالُ: وَصَلَ فُلَانٌ رَحِمَهُ يَصِلُهَا صِلَةً"⁶.

يَفِيدُ لَفْظُ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْأَصْلِ وَصَلَ فِي التَّحْدِيدِ الْمَعْجَمِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ مَعَانِي الضَّمِّ، وَالتَّعْلِيقِ، وَعَدَمِ الْإِنْقِطَاعِ، وَكَذَلِكَ الْإِتِّصَالُ، وَالتَّوَصُّلُ، وَالْوَصْلُ، وَالْوَصَالُ بَعْدَ الْحَجَرِ، وَالْوَصْلُ فِي ذِكْرِ الْكَلَامِ؛ جَعَلَ بَعْضُهُ مَوْصُولًا لِبَعْضٍ، وَفِيهِ الْإِنْتِهَاءُ وَالْإِبْلَاحُ، وَمِنْهُ صِلَةُ الرَّحِمِ.

وَجَاءَ فِي التَّنَاطُلِ الْمَعْجَمِيِّ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ لِمَصْطَلَحِ التَّوَاصُلِ، الْإِحَالَةُ إِلَى الْأَصْلِ "وَصَلَ"؛ وَمِنْهُ "وَصَلَ" فُلَانٌ (يَصِلُ) وَصَلًا: دَعَا دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ بِأَنْ يَقُولَ: يَا آلَ فُلَانٍ. وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ وَصَلًا وَصَلَّةً: ضَمَّهُ بِهِ وَجَمَعَهُ وَلَاقَاهُ. وَفُلَانًا وَصَلًا، وَصِلَّةً: [ضِدَّ هَجْرَةٍ]، وَيُقَالُ: وَصَلَ حَبْلَهُ بِفُلَانٍ. وَبَرَّهَ وَأَعْطَاهُ مَالًا وَرَحِمَهُ: أَحْسَنَ إِلَى الْأَقْرَبِينَ إِلَيْهِ مِنْ ذَوِي النَّسَبِ وَالْأَصْهَارِ، وَعَطَفَ عَلَيْهِمْ وَرَفَّقَ بِهِمْ وَرَاعَى أَحْوَالَهُمْ. وَالْمَكَانَ، وَإِلَيْهِ وَصُولًا، وَوُصْلَةً، وَصِلَّةً: بَلَغَهُ وَانْتَهَى إِلَيْهِ. وَيُقَالُ: وَصَلَ إِلَى بَنِي فُلَانٍ: إِذَا انْتَمَى إِلَيْهِمْ وَانْتَسَبَ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ (النِّسَاءُ/90)⁷.

وَيَفِيدُ التَّوَاصُلُ فِي التَّحْدِيدِ الْمَعْجَمِيِّ الْحَدِيثِ مَعَانِي الضَّمِّ، وَالْجَمْعِ، وَالْمَلَايَمَةِ، وَالْبَرِّ، وَالْعَطَاءِ، وَالرَّحْمَةَ، وَالْإِحْسَانَ، وَالْعُطْفَ، وَالرَّفْقَ، وَالْمُرَاعَاةَ، وَالتَّبْلِيغَ، وَالْإِنْتِهَاءَ، وَالْإِنْتِمَاءَ، وَالْإِنْتِسَابَ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي مَا سَبَقَ وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ الْمَعَاجِمُ الْعَرَبِيَّةُ الْقَدِيمَةُ.

وَبِالنَّظَرِ إِلَى التَّعَدُّدِ فِي الْمَعَانِي اللَّغَوِيَّةِ لِهَذَا الْمَصْطَلَحِ جَازَ الْقَوْلُ أَنَّ "مَفْهُومَ التَّوَاصُلِ فِي اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَعْمَقُ مِنْ أَيِّ مَفْهُومٍ آخَرَ فِي اللُّغَاتِ الْأُخْرَى، وَأَنَّهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِ وَالْإِنْفِتَاحِ عَلَيْهِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى حَدِّ الرَّحْمَةِ، وَالْإِحْسَانِ، وَالْعُطْفِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَعَدَمِ الْهَجْرَانِ وَالْإِنْقِطَاعِ عَنِ الْآخَرِ"⁸.

إِنَّ اللَّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لُغَةٌ اسْتِعْمَالٍ وَتَدَاوُلٍ، وَهِيَ تَتَمَيَّزُ بِشَرَاءِ الْمَفَاهِيمِ؛ كَوْنُهَا تَحْتَكِمُ إِلَى انْفِتَاحِ دَلَالِي لَا حَصْرَ لَهُ فِي اسْتِنَادِهَا إِلَى مَقُولَةِ السِّيَاقِ فِي التَّحْدِيدِ الْمَعْجَمِيِّ لِلْأَلْفَاظِ، وَهَذَا مَا يَفْسِرُ اتِّسَاعَ الْحَقْلِ الدَّلَالِيِّ لِلْفِظَةِ التَّوَاصُلِ فِي الْمَعْجَمِ اللَّغَوِيِّ الْعَرَبِيِّ.

التحديد الاصطلاحي:

التواصل من المصطلحات العابرة للتخصص؛ حيث نلفيه حاضراً في عدد من مجالات المعرفة، وهذا ما يفترض هامشاً من الاتساع وعدم الاتفاق في تحديد دلالاته الاصطلاحية؛ غير أن هذا لم يمنع من وجود عدة محاولات لضبط معناه.

وبالرغم من التجاذب المفاهيمي الذي يشهده مصطلح التواصل، مروراً بمختلف حقول المعرفة الإنسانية على اختلافها وتنوعها، و"كل ما يمكن أن يشتغل كرابط بين الإنسان وما يوجد خارجه، وكل الأشكال الثقافية التي تتحدد من خلالها هوية الأفراد، وتخبر عن انتماءاتهم إلى ثقافة بعينها - لغة ولباساً وطقوساً ونمط عيش - يجب النظر إليها باعتبارها "وقائع إبلاغية" تندرج ضمن حالات الاجتماع الإنساني الذي يتجلى داخله الفرد طوعاً عن ملكوته الخاص لكي يتوحد مع الآخرين، فلا يمكن تصور النشاط الثقافي - العنصر المحدد للوجود الإنساني - إلا من خلال زاوية تواصلية"⁹.

ويستمد التواصل أثره الإبلاغي من محمولاته الاجتماعية الدالة عليه؛ ذلك أن "التواصل يتضمن بالضرورة حالات للتدليل، والدلالة لا يمكن أن تخلو من قصدية إبلاغية صريحة، أو مفترضة فقط من خلال المقام التلفظي"¹⁰.

تتمثل عناصر التواصل في الباث والمتلقي والسياق والصيغة التلفظية؛ وكأن هناك عقد لميثاق إلحاق لساني، يملك كل من الباث والمتلقي معرفة بشروطه، وما يتعلق به من عناصر على سبيل الحضور أو الغياب. إن التراكم الثقافي الذي يملكه الإنسان، بما في ذلك الرصيد اللغوي، لا يخرج بأي شكل من الأشكال عن دائرة الإبلاغ الاجتماعي؛ "فالتواصل هو الآخر حالة اجتماعية تتحقق من خلال أنساق متعددة ينسج الأفراد داخلها سلسلة من العلاقات من طبائع مختلفة: اللغة، والنسب، والجوار، والتصاهر، والحاجات الاقتصادية"¹¹. وبالنظر إلى تغير معطيات الحياة الإنسانية، وكذا متطلباتها تعددت وسائط التواصل الأمر الذي مهد "لظهور الوعي بأن التواصل البشري لا يتم فقط بواسطة إشارات لغوية شفاهية أو كتابية، لكن أيضاً بالحركات الإيماءات والأيقونات والرموز التي تقوم مقام الأنساق الأخرى، وقد أفسح هذا المجال لعدد الدراسات حول هذه الأنساق، وإلى دراسات حول مقدار ما للتواصل من نجاعة؛ أي حول الرسائل المتوفرة لدى الباث ليؤثر في المستقبل بأنجع الطرق الممكنة"¹².

وبالنظر إلى هذه المنظومة الواسعة من العلاقات، المرتبطة برصيد أوسع من الطبائع الإنسانية، يصبح من الصعب حصر النشاط التواصل في اتجاه دلالي بعينه، وهذا ما يفترض بالضرورة اتساعاً في حقله المفاهيمي. ويتحكم النشاط التواصل في توجيه العلاقات الإنسانية؛ "إذا كان التواصل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، المشكّل لجوهر العلاقات الإنسانية، والمساهم الأساسي في تطوير تلك العلاقات؛ فإن نمط العلاقة الذي يحكم هذا التواصل، هو الذي يحدد مدى جدواه وفائدته"¹³.

يقوم التواصل على مبدأ المشاركة بين أطرافه؛ وأنه لا يتحقق إلا بوجودها الفاعل؛ على أساس أنه "عملية نقل بين مصدر الباث وشخص هو هدف الرسالة المتقبل، وذلك حسب رسم متناظر حول مفاهيم الشفرة، والقناة، والباث، والمتقبل، والتشفير، وفك التشفير"¹⁴.

كما يشمل هذا النشاط عناصر أخرى تتعلق بالزمان والمكان؛ حيث أن "التواصل هو إشراك شخص (أو هيئة Organisme) موضع في فترة ما، في نقطة معينة - في تجارب منشطة لمخطط شخص آخر أو نسق آخر موضع في فترة أخرى، ومكان آخر عن طريق استعمال عناصر المعرفة المشتركة بينهما"¹⁵.

تتعلق الشراكة بهذا المعنى بعناصر المعرفة بين طرفي أو أطراف الفعل التواصل، أما عن اشتغالها فمتعلق بعناصر الزمان والمكان، أما نوعية التواصل فمحددة بطبيعة التجارب وخصوصية الأنساق المتحركة في توجيه هذا الفعل.

مفهوم التواصل اللغوي:

يتواصل الإنسان بأكثر من وسيط، إلا أن أهم مظهر للتواصل الإنساني ما يعرف بالتواصل اللغوي؛ وهو "مصطلح علمي يحيل إلى تحديد معرّفين معينين، ترسخ في قناعات معظم اللغويين والنحاة والنقاد العرب، بحكم أنّ البلاغة والبيان والخطابة هي فنون تواصلية أو معارف لغوية - في أحيان كثيرة - ، وغير لغوية، هدفها التواصل الذي يعني في بعض مضامينه الفهم والإفهام"¹⁶.

ويمثل الفهم حجر الزاوية في العملية التواصلية، فلا نتصور دورة خطابية سليمة لا يكون فيها الفهم قائماً، بل إن غياب الفهم يسقط أي جهد تواصلية محتمل حدوثه؛ كونه من الشروط الأساسية المتصلة أكثر بالرسالة.

وقد سبق وأشار الدرس اللغوي العربي قديماً إلى ما له صلة بهذه الشروط؛ ومن ذلك مسألة "الاستقامة من الكلام والإحالة"، نظراً لأهمية هذا العنصر في تحقيق العملية التواصلية في شكلها الصحيح والمنطقي، حيث نجده يقسم الكلام فيقول: "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسأتيك غداً. وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً، وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيداً يأتيتك، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"¹⁷.

إن الاستقامة من الكلام والإحالة تدعم الفعل التواصلية عبر الرسالة الكلامية التي يشتغل فيها المتكلم على اللغة بما يحقق هدفه من الكلام؛ معنى ذلك أن استقامة التواصل من استقامة الكلام، وأن أي خلل في السالة الكلامية يترتب عنه خلل في التواصل.

إن للسياق دخل كبير في تحديد المعنى عبر النشاط التواصل، وهو قوام تفسير الكلام وتوضيحه؛ ولهذا عني الدرس اللغوي بـ "تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين، وكيفية تأثير السياق في ما يقال. كما يتطلب أيضاً التمعن في الآلية التي ينظم من خلالها المتكلمون ما يريدون قوله وفقاً لهوية الذي يتكلمون إليه، وأين ومتى وتحت أية ظروف"¹⁸.

يمثل التواصل قيمة وهدفاً في حد ذاته، وهذا ما يجعله مطلباً استراتيجياً؛ فضلاً عن كونه "ينقل الطرفين من مستوى الرفض والازدراء إلى مستوى الاستماع والاحترام، حتى وإن لم يجمعا على موقف واحد، ويرتقي بوعي الإنسان من التكفير إلى التفكير. وقد عَجَّ الفكر العربي المعاصر بمشاريع كثيرة في محاولة لبناء نظرية في التواصل، وكانت تصطدم في كل مرة بمفهوم الشروط المسبقة للحوار، فأنشأ لنا هذا النوع من التواصل صداماً بين التراثيين والحداثيين، بين العقلانيين والنقلانيين، بين الإسلاميين والعلمانيين، وأياً كانت التسميات، فإنها تقع كلها في فتح الحديث الموجه سلفاً"¹⁹.

والمقصود بالشروط المسبقة للحوار أو الحديث الموجه سلفاً وجود مرجعيات أو خلفيات سابقة راكمتها التجارب والمواقف بإيجاباتها وسلبياتها لتتحول فيما بعد إلى سند تواصلية من شأنه التحكم في ضبط قنوات أطراف الحوار أو الحديث.

نثير في هذا السياق سؤال الأنا والآخر من مدخل "فهم ينطلق من الذات، وفهم يتجه إليها، نجد فلسفة التذوات، بشكلها العام، نفسها مرتبطة بتلك العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر، هذا الآخر الذي يتأرجح مفهومه بين السلب والإيجاب، بين الإثبات عن طريق النفي أو العكس، ولكنه يعبر باستمرار عن ذلك التلازم بين القراءتين، فنحن بحاجة دائماً إلى قراءة مزدوجة، لأن كل نظرة إلى الذات تنطوي على نظرة إلى الآخر، والعملية مقلوبة أيضاً، مع ملاحظة أن الآخر ليس جوهراً ثابتاً، ولا يمكن أن يمثل حالة ثابتة، فهو محكوم بسيرورة تاريخية متغيرة، إذ لا يمثل حالة واحدة متحدة لا تقبل التفكيك، وإنما هو حالة متنوعة"²⁰.

إن النظرة إلى عاقبة الذات بالآخر تختلف باختلاف الناظر والمنظور إليه، و"المسألة بالنسبة إلى الدارس، والمفكر، والفيلسوف العربي، تطرح خاصة على المستوى الحضاري من خلال محاولة تحديد المسافة التي تفصله عن الآخر الغربي، الآخر الحداثي، إما بمحاولة تجاوز المسافة واحتضانه، وإما بمعاداته وإدانتها، ولأن معرفة الذات العربية أو الإسلامية لذاتها مرتبطة بالآخر، فإن فهم طبيعة العلاقة التي تربطها بالغرب لأجل تحديد المسافة التي تفصلها عنه، يعد اليوم أمراً ضرورياً، فالدعوة إلى التفكير في أوضاع الفكر العربي المعاصر تحت مقولة الصراع أو التواصل، محكومة بعلاقة العالم العربي، أو الإسلامي، بتاريخه وإنيته، وكذا علاقته براهنية مشدودة إلى ذلك النموذج الغربي"²¹.

وبحكم ما يفتحه التواصل من آفاق للخلاف أو الوفاق على صعيد العلاقات لتحليل الحدث التواصلية فإنه يجب الحذر في الاشتغال على هذا الجانب "وحتى لا تُترك المبادرة لأي رأي غير مؤسس ومتطرق، من هنا

وهناك، فإنَّ الحاجة إلى ممارسة فلسفية وتنظيرية لأجل فهم، وتحليل، وتفسير، ونق د، شكل الاتصال والتواصل الداخلي والخارجي، أضحت حتمية لتأسيس فلسفة للتواصل لا تقوم على الأحكام المسبقة، وإنما تقوم على الدخول في حوار حضاري، وفلسفي، وعقلاني، وأخلاقي هادف للوصول إلى تواصل فعلي يتمأسس على الوضوح والاحترام المتبادل²².

وبالفعل ما أوجنا لفلسفة التواصل أكثر من التواصل في حد ذاته؛ لأن التصور الفكري السليم لنشاط تواصل سليم من شأنه أن يغير مشهد المنظومة التواصلية الراهنة بكل ما يعترها من تشويش وارتباك التي تتحكم في توجيه مسار مختلف العلاقات.

فلسفة التواصل اللغوي:

يحقق الإنسان نشاطه التواصل عن طريق منظومة من الوسائط تتعدد وتتنوع وتختلف في طبيعتها حسب سياقات الاتصال، والأنساق الموجهة له؛ إلا أن الوسيط اللغوي يكاد يكون سيد هذه الوسائط جميعا بحكم اتساع دائرة اشتغاله مقارنة بغيره.

إن الوساطة التواصلية التي تؤديها اللغة، دفعت الدرس اللغوي للعناية البحثية بهذا الجانب؛ خاصة من حيث أن "اللغة وسيلة اتصال وتفاهم لما يخدم العملية الاتصالية، ينفرد بها الإنسان دون غيره من المخلوقات؛ كونها من أبرز الوسائل التي يستعملها الإنسان للتعبير عن خبراته، ومشاعره، وآراءه. تتجلى الوظيفة الأساسية للغة في الاتصال (**communication**)؛ فهي من أكثر الوسائل المتاحة استعمالا لهذه الوظيفة. ومن هنا كان التواصل عنصرا بالغ الأهمية في الحياة الإنسانية، فالحياة ذاتها تواصل مستمر"²³.

إن اللغة فضلا عن كونها وسيطا تعبيريا عن مختلف الخبرات، والمشاعر، والمواقف الإنسانية فإن وظيفتها الأساسية هي الوظيفة التواصلية التي يستحيل فصلها عن الوظيفة التعبيرية في الأداء والممارسة.

وقبل أن نطرح سؤال اللغة بوصفها وسيطا تواصليا يجدر بنا طرح سؤال اللغة من حيث تمثلاتها التعبيرية في الوعي الإنساني؛ ذلك أن "البحث في قضية اللغة مهما كان منهجه وممره، يحيلنا مباشرة إلى مشكل علاقة إنسان بالظاهرة اللغوية في أصل اتصاله بها، ثم في مدى انحصاره فيها، والتراث العربي في منطوقه ومضمونه قد زخر بتساؤلات مبدئية تمحورت حول ديمومة لقاء الإنسان باللغة منذ المبتدأ، والتفكير في هذا المشغل المجرد قد كان في تنوعه وطرافته على قدر ما كان يُلابسه من مضايقات التناقض الحتمي في محاولة المفكرين النظر في علاقة الإنسان باللغة من حيث كانوا يفكرون في اللغة وباللغة في نفس الوقت، فالقضية المبدئية إذن تنحصر في موقف منهجي حاول فيه النّاظرون تأمل هذا الإشكال ببعد فكري افتراضه والتزمه حيال اللغة التي استحالت مادة للفكر وموضوعاً له"²⁴.

شغلت اللغة اهتمام الدرس العربي قديما انطلاقا من مقولة أن الإنسان يفكر باللغة، ويفكر فيها، ويتواصل بها، وقد اهتدى أهل البحث في هذا الباب إلى أن اللغة مادة للفكر وموضوعا له في الآن ذاته، كما أنها مادة للتواصل وموضوعا له.

خاتمة:

نخلص إلى القول بأن التواصل اللغوي يمثل عصب الحياة الإنسانية في مختلف مجالاتها، وأنه تشكيل معقد من الشروط والمعطيات ذات صلة وطيدة بالمرجعية اللغوية لأطرافه، كما مراجعة التفكير التواصلية تتطلب مراجعة أعمق لهذه المرجعية خاصة ما تعلق منها بالسند الحضاري.

- ¹ - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج 6، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت- لبنان، د ط، 1979، ص 115.
- ² - نفسه، ص 116.
- ³ - أبي القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 1419هـ-1998م، ص 339 (مادة (وصل)).
- ⁴ - نفسه، ص 339 (مادة: وصل).
- ⁵ - ابن منظور، لسان العرب، مج 11، دار صادر، بيروت، د ط، د ت، مادة (وصل)، ص 726.
- ⁶ - نفسه، ص 727.
- ⁷ - مجموعة من اللغويين العرب، المعجم الوسيط، إشراف: شوقي ضيف، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط 4، 1425هـ-2004م، ص 1067. (وصل)
- ⁸ - إبراهيم حسن أبو حسنية، التواصل في القرآن الكريم، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، الأردن- عمان، ط 1، 1435هـ-2014م، ص 38.
- ⁹ - سعيد بنگراد، إستراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة، مجلة علامات، مكناس- المغرب، العدد 21، 2004، ص 03.
- ¹⁰ - نفسه، ص 4-5.
- ¹¹ - نفسه، ص 03.
- ¹² - هامل شيخ، التواصل اللغوي في الخطاب الإعلامي من البنية إلى الأفق التداولي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد- الأردن، ط 1، 2016، ص 13.
- ¹³ - عبد الكريم غريب وآخرون، التواصل والثقافة من أجل التعارف، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 1431هـ-2010م، ص 06.
- ¹⁴ - هامل شيخ، التواصل اللغوي في الخطاب الإعلامي من البنية إلى الأفق التداولي، ص 13.
- ¹⁵ - أ.مولر، ك. زيلتمان. ك.أوريكيوني، في التداولية المعاصرة والتواصل- فصول مختارة، ترجمة وتعليق: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2014، ص 07.
- ¹⁶ - هامل شيخ، التواصل اللغوي في الخطاب الإعلامي من البنية إلى الأفق التداولي، ص 25.
- ¹⁷ - سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ج 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1408هـ-1988م، ص 25-26.
- ¹⁸ - نبيلة ناوي، دور التداولية في عملية التواصل، مجلة الحكمة- مجلة دولية مستقلة محكمة متخصصة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، بن عكنون- الجزائر، العدد الرابع عشر، السادس الأول (جانفي- جوان) 2018، ص 183.

- ¹⁹ - جلّول مقورة، فلسفة التواصل في الفكر العربي المعاصر - طه عبد الرحمن وناصيف بين القومية والكونية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط 1، 2015، ص 14.
- ²⁰ - نفسه، ص 11.
- ²¹ - نفسه، ص 11.
- ²² - نفسه، ص 11.
- ²³ - فاطمة الزهراء صادق، التواصل اللغوي ووظائف عملية الاتصال في ضوء اللسانيات الحديثة، مجلة الأثر، الجزائر، العدد 28، جوان 2017، ص 51.
- ²⁴ - عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط 1، 1981، ص 46.